أطياف فكرية

إكسير الحياة أو حجر الفلاسفة

تحليل مختصر لتائية الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي

د. محمد علي حاج يوسف

يعتقد الفلاسفة والكيميائيون القدماء بوجود مادة سحرية لها قدرة تشفي جميع العلل والأمراض والانحرافات في النفس والجسم والطبيعة، ويمكن بواسطتها مثلاً تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب، كما يمكنها تحويل الإنسان العادي إلى فيلسوف حكيم، وتسمى هذه المادة حجر الفلاسفة، أو الحجر الكريم، أو الإكسير، وقد تُسمى بالكبريت الأحمر أو الزئبق الأحمر، أو العنقاء، إلى غير ذلك من الأسماء المختلفة.

تشير دراسة التاريخ والمخطوطات إلى انشغال الكثير من العلماء والفلاسفة في الحضارات القديمة بهذه المادة وخواصها وكيفية تركيبها واستعمالها، كما أنَّ بعض علماء العصور الوسطى المشهورين قضوا جزءاً كبيراً من حياتهم في البحث عن الإكسير، مثل إسحق نيوتن الذي شغله هذا الأمر كثيراً وأخذ من وقته أكثر بكثير مما قضاه في قوانين الميكانيك والجاذبية. كما أنّ بعض الدول مؤخراً استخدمت المفاعلات النووية للحصول على الزئبق الأحمر الذي ثارت حوله شائعات كثيرة وأصبح يُباع بمبالغ خيالية.

كذلك فقد أكدت الدراسات أن مثل هذه المواد كانت تقدم للفراعنة، وكانت تسمى "خبز الآلهة" أو باللغة المصرية القديمة: "شي مان"، وهي نفسها "المنّ" الذي أنزله الله على بني إسرائيل بعد خروجهم من مصر إلى أن طلبوا من نبيهم أن يخرج الله لهم البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل، فقال لهم: (أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ).

وبما أنَّ الصوفية اهتموا بتزكية النفوس وتطهير القلوب، فقد أشاروا كذلك في كتبهم المختلفة إلى الإكسير وطريقة تركيبه وكيفية استعماله، وقد يرمزون إليه أحياناً في قصائدهم بالمدامة أو الخمرة، كما يقول ابن الفارض في قصيدته الخمرية:

شَربْنَا على ذكْرِ الحبيبِ مُدامَةً
سكِرْنَا بها مِن قبل أن يُخلق الكَرْمُ
لها البدرُ كأسٌ وَهيَ شمسٌ يُديرُهَا
هلالٌ وكم يبدو إذا مُزِجَتْ نَجمُ
على نفسه فليَبْك مَن ضاع عُمْرُهُ
وليسَ لهُ فيها نَصيبٌ ولا سهمُ

الإكسير في التاريخ

ورد في كتاب «مفاتيح العلوم» أن الإكسير هو الدواء الذي يحوِّل المعدن المصهور إلى ذهب أو فضة، كما يمكن أن يُطيل حياة الإنسان بتخليص جسده من الأمراض. ويبدو أنّ الفراعنة استخدموا مثل هذه المواد في الطعام وفي التحنيط، وورثها عنهم الفلاسفة اليونانيون، كما توجد إشارات عديدة إلى أنّ الصينيين القدماء كانوا يعرفون الإكسير. ومن العرب اشتهر عالم الكيمياء جابر بن حيان، الذي اعتمد الفلسفة اليونانية التي تقول إنّ كلّ مادة أو جسم يتصف بمزاج محدد من أربع خواص هي الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة، وبالتالي يمكن تحويل المواد من خلال تعديل مزاجها، إلى أن تصبح مثل الذهب أو الفضة. وتقول بعض الروايات إنَّ قارون استخدم الإكسير للحصول على ثروته الهائلة التي ذكرها القرآن الكريم، كما فعلت كليوباترا، وكما ذكر الفيلسوف ديموقراطيس عن كهنة الفراعنة أنهم كانوا يحولون التراب إلى ذهب في المعابد، وكما كان يفعل الملك ميداس الذي حوَّل ابنته إلى تمثال ذهبي حينما لمسها ناسياً أنَّه كان يحمل معه هذا الإكسير.

يقول أبو يعقوب السجستاني في كتاب "الغريب في معنى الإكسير"، أنَّ الإكسير يتألف من جسد وروح ونفس، تُفصَل بتفصيل طبيعي ثم تُركَّب بتركيب طبيعي ليكون منها دواء يشفي علل باقي المعادن ويردُّها إلى الطبيعة الذهبية، وذلك لأنَّ كلَّ المعادن خُلقت لكي تكون ذهباً، فأصابتها أعراض وأمراض أدَّت إلى اختلال مزاجها فانعقدت قبل أوانها، ولم ترقَ إلى معدن الذهب. والعقار الذي يكون منه الإكسير هو واحد بالنوعيه ومتعدد في الشخصيه، أي إنه من عدة معادن جُمعت فصارت شيئاً واحداً.

الإكسير وعقار الخلود

كان جلجامش أحد الملوك السومريين، وتصف ملحمته الشعرية الشهيرة كيف ذهب في رحلة البحث عن ماء الحياة، حتى توصَّل إلى الإنسان الوحيد الذي وصل إلى تحقيق الخلود وكان اسمه أوتنابُشتُم، والذي تتطابق أوصافه مع شخصية الخضر. وبعد رحلة طويلة ومضنية وصل جلجامش إلى أوتنابشتم الذي سرد له قصة الطوفان العظيم وكيف نجى منه هو وزوجته وحصلوا على الخلود. ولكن في النهاية توضح الملحمة أنَّ جلجامش فشل رغم كثرة محاولاته التي كان آخرها الغوص في أعماق بحر دلمون (وهي دولة البحرين حالياً) حتى يتمكن من اجتناء العشب السحري، والذي يكون في النهاية من نصيب الأفعى التي أكلته بعدما خرج جلجامش من البحر فأخذته سِنة من النوم حينما كان يستريح على الشاطئ. ولهذا تقولُ الأسطورة إنَّ الأفعى تغير جلدها حتى تتجدَّد حياتها.

وفي الصين القديمة سعى العديد من الأباطرة للبحث عن هذا الإكسير الخرافي، حيث أرسل "تشين شي هوانغ" عالم الكيمياء "شو فو" مع خمسمائة رجل وخمسمائة امرأة إلى البحار الشرقية للحصول على الإكسير، لكنهم لم يعودوا أبداً. وتروي كتب التاريخ أنَّ العديد من الأباطرة الصينيين توفّوا بسبب تناولهم جرعات قاتلة من العقاقير التي وصفها لهم الكيميائيون لهذا الهدف.

الإكسير والحكمة الإلهية

لكنَّ الفلاسفة والحكماء لم يكونوا يهتمون بالإكسير للحصول على معدن الذهب نفسه، وإنما لتحويل معدن الإنسان إلى معدن الفضائل والحكمة، وهو ما يسمى بالصنعة الإلهية أو كيمياء السعادة، وهي علم تزكية النفوس؛ وقد اختصَّ به الأنبياء والأولياء من شيوخ الصوفية، ويمكن الوصول إليه عن طريق الخلوة والرياضة، علماً أنّه كثيراً ما يتمُّ الخلط بين التأثير على النفوس من أجل تزكيتها وتربيتها، والتأثير عليها لأهداف دنيوية أخرى، وهو مجال كبير يتداخل في أغلب الأحيان مع السحر والشعوذة. ولذلك أوضح الشيخ الأكبر في آخر بيت في قصيدته التائية أنَّ العلماء الحقيقيين لا يطلبون من هذا العلم تحويل المعادن إلى ذهب أو التأثير في النفوس من أجل تسخيرها في خدمتهم أو الحصول على أيٍّ مكسب دنيوي، لأنَّ ذلك - إنْ كان ممكناً - إنَّما يُبعدهم في الحقيقة عن المراد، وهو الله سبحانه وتعالى، فقال:

وطـالـبُ غـيـر الله في الأرضِ كلِّـها
كـطَـالـبِ مـاءٍ مـن تُـرابٍ بِـقِـيـعَـةِ

تحليل مختصر للقصيدة التائية

يفتتح الشيخ الأكبر التائية بقوله: "تنزَّهت لَمَّا أنْ حضرت بحضرتي" وذلك باستخدام قافية التاء التي يمكن - في هذا البيت وفي أغلب باقي أبيات القصيدة التي يزيد عددها عن أربعمئة بيت - أن تكون تاء الفاعل، أو تاء المخاطَب، وكذلك تاء التأنيث، حين لا تكون مُشَكَّلةً؛ فمثلاً يمكن أن تكون: حضرتُ، أو حضرتَ، أو حضرت. وذلك أولاً لأنَّ الصوفيَّة عادة ما يستعيرون الغزل والكلامَ عن الحبِّ والعشق للتعبير عن فنائهم في الذات المحمَّديَّة أو في الذات الإلهيَّة، وثانياً هو يريد هنا أن يشير إلى تلاشي الحدود بين المحبِّ والمحبوب، ولكنَّ ذلك لا يكون إلا بعد التنزيه عن الكون، أو الفناء عن الوجود، عندئذ فقط لا يستطيع الشاعر نفسُه أن يعرف حقيقةً من هو المُتكلِّم ومن هو المخاطَب!

فالله سبحانه وتعالى عندما خلق الإنسان نفخ فيه من روحه، فظاهره جسمٌ بشريٌّ كثيف وباطنه روحٌ إلهيٌّ لطيف، وهو إنسانٌ بهما معاً، فإذا غلب عليه الجسم انحرف نحو الطبيعة الحيوانية وإذا غلب عليه الروح تنزَّه بالأخلاق القدسية. ومن هنا تأتي التربية والتزكية، لمداواة الأمراض القلبية وإعادة الإنسان إلى الاعتدال بين الجسم والروح، ويمكن أن يحصل له ذلك عن طريق معرفة الإكسير، وهو على الحقيقة إعادة اكتشاف هذا الروح الإلهي الذي نفخه الله فيه حين خلقه، فضيَّعه ولم يعطه حقّه حينما مال مع النفس إلى الهوى والشهوات الدنيوية، سواء المباحة منها أو المحرمة. لذلك فإن سلوك طريق التصوف هو في الحقيقة جهاد وصراع طويل بين القلب والعقل من جهة وبين النفس وقواها الشهوانية من جهة أخرى.

أصل الوجود وتطور الخلق

يختصر ابن العربي في هذه القصيدة الكبيرة قصة الخلق من البداية إلى النهاية، وفق الرؤية الصوفية، ويصف لنا كيفية صنع الإكسير أو إعادة استكشاف الروح الإلهي الذي يمكن أن ينقل الإنسان من دركات الخلق وظلمة الأجسام إلى درجات الحق وأنوار الأرواح، عن طريق تحويل معادن النفوس الناقصة إلى الكمال الذي هو الذهب الخالص.

ففي البداية يشير الشيخ الأكبر إلى أنَّ كلَّ شيء في الوجود، مهما اختلفت درجته بين النقص والكمال، لا يمكن أن يخلو من هذا الروح الإلهي، فإنْ كان هذا الروح فيه ظاهراً كان أقرب إلى الكمال وإن كان باطناً كان أقرب إلى الظلمة، ولكنَّك إن دقَّقت النظر تجده في كلِّ شيء:

تجلَّى لي النورُ الأعمُّ بكُنهه
فشاهدتُ ذاك النور في كلِّ صورةِ

وبالتالي حين تستغرق في تحقيق هذا النظر، تفنى أمامك الظواهر المظلمة ولا يبقى غير هذا النور، فتراه هو الفاعل في كلِّ شيء، فهو المتكلِّمُ وهو المخاطَب؛ وهذا أمرٌ يحيِّر العقول، وهو السبب وراء انتقاد الفقهاء لأهل التصوف حين يتكلمون بمثل هذه الوجدانيات التي قد لا يقبلها العقل:

ومن نَظر العشاقَ بالنقد إنما
رأى حالهم لكن بعين سقيمةِ

فالقلب الذي تملّكه العشق لا يرى غير جمال محبوبه في جميع الصور التي تتقلب بين الحق والخلق، فإذا كان هو الأوَّل وهو الآخر وهو الظاهر وهو الباطن، فمن تكون أنت؟ بل كلُّ شيء هو صورٌ وظلال في الخيال، لا تلبث أن تفنى في الزمن الثاني بعد وجودها، ثم يخلق الله صوراً أخرى مثلها تتغير أوصافها وتتبدَّل مع مرور الزمن:

فشاهدْت ما لا وصفَ يَثبُت عنده
فحِرتُ وحارَت عند ذلك حَيرتي

ثم يقول:

شهدتُ أناني وهو في حضرة العما
فكان شهودي مُؤذناً لي بكثرةِ

أي شهدت نفسي في الغيب المطلق، قبل أن تنزل إلى هذا العالَم المتكثِّر وتظهر في صوره المختلفة المادية منها؛ كالتراب والماء والنار والهواء ومركباتها، والمعنوية كالعلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها:

فشاهدْتُني حيّاً عليماً بما بدا
مُريداً قديراً كلَّ شيءٍ بقدرتي
سميعاً بصيراً قادراً متكلِّماً
أُحكِّم أحكامي على حُكم حِكمتي
وأشهَدُني ناراً تحرِّق ما دنى
إليَّ وبيَّنَ لي فأظهرَ عِزَّتي
فأنزلُ غيثاً مستطاباً نزولُه
لدفع الظما عن من شكا حرَّ غُلَّةِ
وأرجعُ أرضاً ساتراً لقبائحٍ
وموطئَ أقدام فأظهرُ زلَّتي
فأُخلَط ماءً بالتراب مخمَّراً
أخمِّره حيناً فَيُدعى خميرتي
فأظهرُ إنساناً يسمَّى بآدم
وأسكنُ في الجنَّاتِ أرفع جنَّتي
وأُودِعَت الأسماءُ عندي، وحُقَّ لي
بأن أتسمَّى عند ذا بالخليفةِ

بداية التكاثر والركون إلى الدنيا

ثم يبدأ الخلق بالتكاثر، وتختلف الصور وتتنوع المظاهر، فيكون منهم الصالحون والطالحون، وتأتي الرسل فيكون هناك المؤمنون والكافرون، فيتقاتلون ويُغلبون ويَغلبون:

وأظهر مني العالَم الأنس كلَّه
إلى الفعل من بعد الظهور بقوَّتي
وأظهر نوحاً وهو داعٍ لقومه
إلى الحقِّ لكن لم يجيبوا لدعوتي

إلى أن قال:

وطُوِّرت موسى مُظهراً لعجائب
فأودعت في التابوت أعظم ذرَّةِ
وقيل لي اذهب نحو فرعون إنَّه
طغى، فعسى ينقادُ يوماً لخشيةِ
طلبت أخي هارون كيما يعينني
وأُعطيتُه ذا قوَّة في معونتي

وقد بيّنّا في منشورات سابقة أن الصوفية يؤوِّلون موسى

بالقلب وهارون بالعقل وفرعون بالنفس (انظر كتاب سلوك القلب: التأويل الصوفي لسورة يوسف).

الصراع بين القلب والنفس

بعد أن أيّد اللهُ القلبَ بالعقل يبدأ الصراع الطويل بين القلب والنفس الأمارة بالسوء، أي بين موسى وفرعون:

ليخرجنا من أرضنا بفعاله
فهل موعدٌ منه إلى يوم زينةِ

وفي النهاية ينتصر القلب وتفنى النفس مع جيوشها في بحر الطبيعة:

أُمرت بضرب اليمِّ إذ ذاك بالعصا
فصيَّرته في الحين رهواً بضربةِ
فسِرنا وساروا خلفنا وإذا بهم
وقد غرق الجمهور في وسط لجَّةِ

ولكنَّ الله يُبقي صورة النفس حتى يحييها من جديد وتترقى إلى مرتبة النفس المطمئنة.

سلوك القلب وفناء النفس

فبعد تخلص القلب من شهوات النفس الأمارة بالسوء، يستقلُّ العقل عن التعلق بالدنيا ويتفرَّغ للعلوم والمعارف الخالدة، ويبدأ السلوك الحقيقي:

وأعطيتُ ألواحاً بعلم مفصَّل
وموعظةٍ، أكرِمْ بها من عطيَّةِ

وجاء الآن دور تحطيم الأصنام، وهي العقائد الفاسدة التي أملاها الخيال السقيم حال تعلق النفس بمتاع الدنيا، فبعد فناء النفس واستقلال القلب يمكن الآن التخلص من هذه العقائد حتى تتمكّن فيه العقيدة الخالصة التي تجلت بالشريعة الإسلامية المعتدلة كما أنزلها الله تعالى على نبيِّنا محمّد، صلى الله عليه وسلم:

فصيَّرت عجل السامريِّ محرَّقاً
ونسفته في اليمِّ أعظم نسفةِ
وطُوِّرت في طور النبيِّ محمَّد
فنلت كمالاتي وتمَّت فضيلتي

عندئذ فقط يمكن اختراق الحجب والظلمات والترقي في سموات المعارف حتى الوصول إلى الفناء، ومن بعده البقاء (انظر كتاب سلوك القلب):

وفي ليلة الإسراء نلت عجائباً
تجلُّ عن الإحصاء أسرار ليلةِ
فكنت كقاب، بل دنوِّيَ زائدٌ
عليه؛ فغشَّاني بأنوار سدرتي

ثم يشرح الشيخ محي الدين بأبيات طويلة كيف يمكن تأليف وتركيب الإكسير الذي يعطي هذا التغيير الذي يحصل بالسلوك ويؤدي إلى فناء النفس الأمارة ثم ترقيها إلى النفس المطمئنة، فتكون من بعدها راضية ومرضية، ثم تكون نفساً كاملة وصلت إلى الحكمة الإلهية، وهي مرتبة الشيخ المرشد الذي يمكن له حينئذ أن يؤثر على نفوس المريدين الذين يريدون سلوك هذا الطريق الطويل:

وإن نظرت يوماً إلى ميِّت غداً
يتيه على الموتى بروح شريفةِ
وإن نظرت يوماً فقيراً رأيته
وقد حاز بالتوفيق أعظم ثروةِ
وإن نظرت يوماً إلى جاهل غدا
يعود بنفس بالعلوم عليمةِ

فهذا هو الإكسير الذي يريده الصوفية، وليس ذلك الذي يمكن أن يحوِّل المعادن إلى الذهب. فالإكسير على الحقيقة هو خلاصة الحب الإلهي والعشق الذي يربط العبد بخالقه ومولاه رباطاً وثيقاً يؤدي إلى الفناء عن الدنيا بما فيها، لأن فيه السعادة الحقيقة في الدنيا والآخرة:

فمن نال منها لمحة أيَّ لمحة
يحق له أن لا يُقاس بقيمةِ
فكيف يكون الحال فيمن أحبَّها
وكلَّ زمانٍ يرتقي في المحبَّةِ
وقد صار فيها عاشقاً طول دهره
وليس له عنها انصرافٌ كطرفةِ
وكيف يكون الحال إن هو كانَها
ولم ينفها غيراً بعين الحقيقةِ
فيا معشر العشاق جُدُّوا وسارعوا
إلى قهوةٍ ليست تُقاس بقهوةِ ◇